

أضرحة الأولياء في مدينة معان الأردنية، من الفاعلية إلى الزوال

ضريح "الشيخ عبدالله" أنموذجا

The Holy Shrines in Ma'an-Jordan: From Effectiveness to Cessation, the Shrine of Sheikh Abdullah as an Example

صالح، أبو طويلة

جامعة الحسين بن طلال، معان، الأردن. ahu@ahu.edu.jo

تاريخ النشر: 2019/12/25

تاريخ القبول: 2019/11/30

تاريخ الإرسال: 2019/ 06/ 26

ملخص:

تناولت الدراسة ظاهرة تقديس أضرحة الأولياء والصالحين في مدينة معان جنوبي الأردن خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وتم اختيار ضريح الولي " الشيخ عبدالله" كأنموذج اكتملت فيه شروط الفضاء الديني المقدس الذي يضم في داخله قبر الولي الصالح، ويتكون من مرافق عديدة تخدم الزوار ويتحدد التعامل معه من خلال طقوس وممارسات معينة، كما ويؤدي وظائف متعددة دينية واقتصادية واجتماعية ونفسية وثقافية؛ وعدّ ضريح الشيخ عبدالله مكونا رئيسا من مكونات البناء الثقافي والديني لمجتمع معان وما حولها من مناطق الريف، ومظهرا من مظاهر التدين الشعبي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وقد أسهم الفكر الصوفي في تعزيز التواصل المادي والروحي للسكان مع تلك الأضرحة المنتشرة في محافظة معان، حيث أضحّت مزارات يومية وموسمية تجري في نطاقها الممارسات والطقوس المختلفة، كما ناقشت الدراسة التحولات التي طالت الهياكل العامة للمجتمع، والتي أسهمت بزوال تلك الظاهرة، كما تطرقت إلى دور حركات الإسلام السياسي في إضعاف نمط التدين الشعبي والطريقي. الكلمات المفتاحية: أضرحة الأولياء، ضريح الشيخ عبدالله، تدين شعبي، فضاء ديني، الطرقية.

Abstract:

The study examined the phenomenon of the sanctification of the shrines of blessed and holy people (Walis) in the city of Ma'an, south of Jordan during the second half of the 20th century. The Shrine of Sheikh Abdullah was chosen for this study as a comprehensive model where the conditions of the religious ad sacred space are met. The shrine has the remnants of the Sheikh and it is comprised of several compartments that serve the visitors. Several and certain rituals and practices were observed in the shrine, which also fulfills religious, economic, social, psychological and cultural functions. Sheikh Abdullah's shrine is a principal component of the cultural and religious identity of the Ma'an community and the surrounding rural areas, and a manifestation of popular religiosity during the 19th and 20th centuries. The Sufi thought contributed to the reinforcement of the population's physical and spiritual communication with the shrines scattered throughout the province of Ma'an. These shrines became venues for daily and seasonal activities within which scope various practices and rituals were observed. The study also discussed the changes that affected the general structures of society, which contributed to the disappearance of that phenomenon. The study also touched on the role of political Islam movements in the weakening of the pattern of popular and order-based religiosity.

Key words: Ma'an, the shrine of Sheikh Abdullah, popular religiosity and religious space.

مقدمة:

تشكلت ظاهرة تقديس أضرحة الأولياء في معان خلال العهد العثماني، حيث برز العديد من الأضرحة في المدينة وما حولها؛ يقصدها السكان ويتبركون بها ويستعينون بها في قضاء حوائجهم المختلفة، ومن أبرز الأضرحة المقدسة؛ ضريح الشيخ عبدالله، وضريح الشيخ محمد الواقع في قلب الواحة الصحراوية، ومزار "أم جديع"، (وأم جديع عبارة عن صخرة مقدسة)، ومزار النبي هارون في "بترا" قرب معان، ومزارات أخرى ضمن مناطق متعددة، ويؤمن أهالي معان قديما بأن تلك الأضرحة تعود لأولياء صالحين، يمتلكون تأثيرا في مجريات الحياة المادية والروحية.

كانت تلك الأضرحة تؤدي وظائف عدة بالنسبة للمعتقدين بها مثل؛ الوظيفة الروحية، الوظيفة التيسيرية، الوظيفة العلاجية، الوظيفة الاقتصادية، الوظيفة الاجتماعية، الوظيفة الثقافية، الوظيفة الإيوائية والرعاية، والوظيفة النفسية، كما تعارف زائرو تلك المواقع على اتباع أنماط معينة من الممارسات الطقسية أثناء زيارتها والتبرك بها وطلب الحاجات منها، وترمز تلك الطقوس والممارسات إلى المطالب و الحاجات المختلفة لديهم، كما وتعكس تمثلاتهم تجاه الحياة والكون والمجتمع، ومع بدء التحولات في الأنماط الاقتصادية والثقافية والاجتماعية لمنطقة معان أواخر القرن العشرين زالت هذه الممارسات والطقوس وتبعها إزالة لبعض المزارات والأضرحة.

شكلت أضرحة الأولياء في معان ركنا أساسيا هاما في البناء الثقافي والروحي للمجتمعات المحلية لمدينة معان وما حولها من الأرياف، وفضاءات عمومية هامة تجري خلالها التفاعلات الاجتماعية والممارسات والطقوس والشعائر الدينية المختلفة والتي تندرج ضمن ما يسمى بنمط التدين الشعبي؛ ومن هذه الممارسات؛ الدعاء والتوسل وطلب البركة والوفاء بالنذور وطلب الاستشفاء، كما عدت زيارة تلك المواقع جزءا من طقوس الزواج والختان، والتحاكم وفض النزاعات الاجتماعية واحتفالات ختم القرآن، وإصدار القرارات الهامة التي تحدد مصير الإنسان. كما شكلت تلك الأضرحة معلما تاريخيا وتراثيا يُوْشِرُ إلى مرحلة تاريخية؛ كانت فيها تلك الأضرحة تعكس طبيعة وظائف وبنية الفضاءات العمومية الدينية في معان، وتؤشر إلى ذاكرة مكان تزخر بالأحداث والمنازعات ومختلف الممارسات الثقافية، كما تؤشر إلى مظاهر وتجليات التدين الشعبي في واحة معان الصحراوية، وجزءا هاما من حركة المجتمع الروحية والدينية، واستمرت

تلك الظاهرة إلى بداية التسعينيات من القرن الماضي، حيث جرت تحولات ثقافية واجتماعية ودينية وسياسية أدت إلى انحسار تلك الظاهرة ومن ثم تحللها كليا.

كان لموقع معان على طريق الحج، وتمسك أبناءها بالتقاليد الدينية - ومنها احترام الحجيج -، وشيوع الجهل والخرافة والفقروالقيم الصحراوية والقبلية والتمركز التركي في المدينة؛ عوامل رئيسة في نشوء ظاهرة تقديس الأولياء، وتشير الروايات الشعبية إلى أن أولئك الأولياء هم من الحجيج الصالحين الذين توفاهم الله وهم في طريقهم إلى الديار المقدسة، واختار لهم تلك البقعة ليدفنوا فيها، ولتتحول تلك الأضرحة بمرور الزمن، إلى مزارات دينية مؤثرة في الواقع الديني والثقافي لمجتمعات معان وأريافها.

إشكالية الدراسة

في هذا السياق البحثي تبرز لنا الإشكاليات الآتية: ما العوامل التي أسهمت في زوال ظاهرة تقديس الأضرحة والأولياء في منطقة معان في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وما هي الوظائف الاجتماعية والاقتصادية والدينية التي كانت تؤديها أضرحة الأولياء في بنية المجتمعات المحلية لمدينة معان وما حولها؟ وما هو دور حركات الإسلام السياسي في القضاء على تلك الظاهرة. كما تسعى الدراسة إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية: ما الوظائف التي كان يؤديها ضريح ومزار الشيخ عبدالله في معان؟ ما العوامل التي أسهمت في زوال ظاهرة تقديس أضرحة الأولياء والتبرك بها؟ ما هي أبرز الطقوس والممارسات الدينية التي كان يمارسها الفاعلون الاجتماعيون في الفضاء المقدس للشيخ عبدالله؟

فرضيات الدراسة

تفترض الدراسة أن عوامل التطور التي طالت الأبنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والثقافية للأردن عامة ومنها مدينة معان خلال الثلث الأخير من القرن العشرين؛ أدت إلى تحلل البناء الديني التقليدي القائم على التصوف والتبرك بالأولياء والصالحين؟ كما تفترض بأن حركات الإسلام السياسي تعمل على تفكيك البنى والأنماط التدينية القديمة لتحل محلها، ولتحوز سلطتها.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى التعرف لظاهرة تقديس أضرحة الأولياء في مدينة معان جنوبي الأردن كفضاءات دينية مقدسة تضم التفاعلات الرمزية الثقافية والدينية لأفراد المجتمع، وتؤدي أدورا ووظائف مختلفة، وكظاهرة تؤثر إلى ملامح التدين الشعبي في معان في تجلياته السوسولوجية بالدرجة الأولى، وذلك من خلال دراسة نموذج " ضريح الشيخ عبدالله " الذي حاز على شهرة واسعة، كما تهدف إلى مناقشة أسباب زوال تلك الظاهرة أواخر القرن العشرين.

منهجية الدراسة وأدواتها

استفادت الدراسة من المقاربة الفيبرية (Max Weber) في تحليل وتفسير علاقة السلوك الاقتصادي بنمط التدين السائد، حيث يتم تفسير التغير في أنماط التدين السائدة وربطها بالتحويلات التي تتعرض لها الهياكل العامة للمجتمع؛ الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، كما استخدمت الدراسة المنهج التاريخي لكون ظاهرة تقديس الأضرحة والأولياء في منطقة معان قديمة استمرت لقرون وتحلت كثيرا أواخر القرن العشرين، كما اعتمدت الدراسة على عدد من المقاربات الأنثروبولوجية، إلى جانب الرصد الاثنوغرافي لأبرز المعتقدات والممارسات حول الضريح، واستخدمت أسلوب المقابلة المعمقة في الحصول على البيانات والمعطيات، إلى جانب أسلوب الملاحظة والمشاركة، حيث تردد الباحث كثيرا على ضريح الشيخ عبدالله وغيره، وحضر العديد من الطقوس التي كانت تمارس في ذلك الضريح أواخر الثمانينيات من القرن العشرين.

1. المفاهيم ودلالاتها

2.1 الضريح

ضرح الشيء، قطعه وشقه، وضرح القبر، حفره، والضريح هو الشق (بتشديد الشين وكسرهما) في وسط القبر، واللحد في جانبه¹، أما في المصطلح الأثري المعماري فإن الضريح هو الحجرة المشتملة على قبر أو تربة تعلوها قبة، وقد ميز البعض القبر الذي هو حفرة الميت وبين التربة التي هي بناء ضريح فوق القبر الذي أخذ في العصر الإسلامي أشكالاً عديدة؛ كان منها البسيط الذي يتألف من كومة من الحصى أو التراب بشاهد أحيانا، وبغير شاهد أحيانا أخرى، ومنها المبنى المرتفع الذي تفنن المعماريون فيه حتى القصور، ومعنى ذلك أن الضريح كان عبارة عن بناء تغطيه قبة يقام على رفات سلطان أو أمير أو إنسان له مكانة دينية أو دنيوية تدعو إلى تخليد ذكراه².

والضريح أيضا هو ذلك الفضاء الذي يضم بالأساس قبر الولي الدفين، ويتمتع عادة هذا المكان بالتقديس، أكثر مما يناله الولي في حياته، لهذا نجد الجماهير البسيطة تتردد على أضرحتهم وقبورهم، تتلمس البركة وقضاء الحاجات، إضافة إلى أن فضاء الضريح يشهد طقوسا وعبادات يرددها زواره³

يتمحور الضريح كمؤسسة حول قبر الولي الدفين، إذ تعتبر الأضرحة في الغالب الأعم قبورا للأولياء. الأولياء أو الصالحاء أو السادة أو الشرفاء كلها أسماء متعددة لمعنى واحد، هم شخوص (رجال ونساء) من البشر وأحيانا من الجن، يعتقد أنهم يمتلكون القدرة على قهر الأرواح الشريرة وجلب الخير لمن يرضون عنه وإلحاق الشر بمن يسלטون عليه سخطهم، وذلك بفضل ما لديهم من بركات امتلكوها في حياتهم بفعل تقربهم من الحضرة الإلهية كما يعتقد، والتي تمكنهم من التوسط بين الإله والبشر لقضاء حاجات السائلين، هذه البركة والكرامات والقدرات لم تنته بموتهم البيولوجي، ولم تنقطع صلتهم بعالم الناسوت، بل تبقى هاته الكرامات حية تنجد من يستنجد بها حسب اعتقاد الناس⁴. ومن هنا يتضح لنا بأن الضريح عبارة عن فضاء مقدس يضم قبر الولي أو الرجل الصالح، ومن روح الولي يكتسب القداسة، وقد يحاط هذا القبر بجدار أو نحوه لتمييزه وتحديده (ضريح الشيخ محمد في معان، كان يحاط به سور من الطين بدون سقف)، وقد يشيد عليه بناء ويدعم بمرافق وبعض الخدمات للزوار (مثل ضريح الشيخ عبدالله في معان).

يعرف الولي بأنه؛ وصف للرجل المقدس الذي يعتقد أن له قوة خارقة يستطيع بها شفاء المرضى وأنه يضيف البركة⁵. والأولياء في رأي المعتقد الشعبي هم بعض الصالحين الذين يتميزون بالتقوى عادة، ويظهرون من الكرامات ما يدل على جدارتهم بلقب الولاية هذا⁶.

ونود هنا أن نفرق بين الولي (الدفين)؛ مثل الشيخ عبدالله المدفون في ضريح وسط المدينة، والذي يمتلك قوى ميتافيزيقية وتأثيرا أكبر في مجريات الحياة المادية والروحية، والولي الذي يتواجد حيا بين الناس وتجري على يديه البركة والخوارق (الشيخ أحمد الدباغ في معان أنموذجا في النصف الأول من القرن العشرين)، وسيتم استثناء الأولياء من الصنف الثاني؛ وذلك لأن كراماتهم وبركاتهم وتأثيرهم لم تستمر بعد موتهم، بل بقي الناس يقدسون النماذج الأولى التي تأسست في العهد العثماني.

وإذا ما تتبعنا ضريح الشيخ عبدالله قيد الدراسة نجده قد ضم بداخله قبورا عديدة، القبر الرئيس هو صاحب الضريح، فضريح الشيخ عبدالله يضم القبر الرئيس، ومن حوله عدد

من القبور داخل فضاء الضريح وقبور أخرى حول الضريح، حيث كان يوصي بعض السكان وخصوصا أعيان المجتمع بأن يدفنوا قرب الضريح تبركا بصاحبه وطلبا للشفاعة. وتعتبر معان قديما محطة كبيرة لاستقبال الحجيج الآسيوي والإفريقي، وقد تشكلت ظاهرة تقديس الأضرحة في هذا السياق؛ إذ ينسب الأولياء إلى كونهم حجيجا تقطعت بهم السبل ودفنوا في تلك المواقع وحصلت لهم الكرامات والخوارق، ولذلك تحولت قبور الأولياء بعد تشييد البناءات عليها إلى فضاءات مقدسة يقصدها السكان لاعتقادهم بأنها تمتلك تأثيرا في مجريات الحياة المادية والروحية.

في التدين الشعبي، تنحى الممارسة الدينية إلى تقليص المسافة بين السماء والأرض، من خلال وسائط وفضاءات مقدسة يتم التوجه لها مباشرة وطلب العون. والوساطة تعني أن المتدين لا يستطيع ممارسة التعبد كفعل مجرد، لأن بنيته الذهنية والمعرفية لا تتجاوز المحسوس، وبالتالي يصعب التعامل مع الله كفكرة مجردة فيكون اللجوء إلى الأولياء الصالحين كوسيط ملموس إجراء وظيفيا؛ حتى تحقق الراحة النفسية للمتعبد والانسجام مع بنياته الذهنية⁷.

لقد عقلن الإسلام المقدس، واعتبر القداسة من نصيب السماء، أما العالم الأرضي الدنيوي، فقد رفعت عنه القداسة وألحق به الدنس، وبالتالي فإن الأماكن والأشياء الأرضية لا تستمد القداسة إلا من كونها ذات علاقة معينة مع السماء. فالتقوى لم تكن لتعيش في عالم دنيوي مدنس، ولم تكن لتتحمل فكرة العيش في عالم تسوده الفوضى، لذلك آمنت بفكرة وجود خزانات للقداسة السماوية، ومن هنا وجود بعض الأماكن التي تحمل نفحات قدسية كالأضرحة، وبعض الأحجار والأشجار والإنسان أيضا⁸

من هنا يتضح لنا بأن أضرحة الأولياء في معان تنسب لرجال صالحين حازوا الولاية والكرامة، وتحولت مدافهم إلى فضاءات مقدسة، حيث تم البناء عليها وتطويرها في مرحلة ما، وكان التركيز على ضريح الشيخ عبدالله والذي يمثل النموذج المتكامل للضريح الذي يؤدي جميع الوظائف ويحقق شرط الإقامة والمبيت فيه، إذ كان الضريح شموليا يؤدي جميع الوظائف بالنسبة لقاصديه.

2.1 ضريح الشيخ عبدالله، كفضاء ديني مقدس

يعد المقدس الشعبي، أو صاحب البركات؛ الوسيط مع الإله لتحقيق الرغبات و إبعاد الشرور خاصة لدى العامة والأُميين من الناس، وحتى لدى المثقفين أحيانا ممن جربوا كل شيء لتجاوز الكرب النفسية والمرضية دون جدوى، فتبركوا بالأولياء عليهم يجدون السبيل للخلاص⁹. وقد ساد الاعتقاد لدى أهالي معان بالتأثير المادي والروحاني لأصحاب تلك الأضرحة والذين يدعونهم "الأولياء" ما شكل حالة من الاتكالية والاعتماد عليها لدفع الشر و جلب الخير وخصوصا لدى فئات النساء. إن الاعتقاد بتأثير الأموات هو من بقايا العقل الانساني البدائي، الذي يعتقد أن روح الميت الساكنة في ضريحه أو مرقدته يمكن أن تؤثر على الانسان وذويه ومجتمعه، ويمكن أن تحقق له الأمانى والرغبات، والشفاء والنفع ودفع الشر والضرر، على أساس أن تلك الروح تملك قوى خارقة، أو انها تمثل صلة وثيقة بين الانسان والإله¹⁰.

بروي الإخباريون في معان بعض الروايات التي تدل على التأثير المادي والروحاني للشيخ عبدالله؛ فمن هذه الروايات أن شخصا يدعى " الحاج حسين " تنازع ورجل من معان حول قضية معينة، فقصد أحد شيوخ البدو القضاة للتحاكم، فطلب الحاج حسين من خصمه وأمام الشيخ القاضي أن يؤدي اليمين عند قبر الشيخ عبدالله، فاستغرب القاضي من هذا الطلب، لكونه لا يعتقد كثيرا في تأثير الأموات، ثم تلفظ بعبارات تستهزيء بالقوى الخارقة لضريح الشيخ عبدالله، ولكنه نزل عند رغبة المتخاصمين بشيء من الضجر، فما أن خرج من ديوانه هو ومن معه، حتى انهيار سقف الحجرة التي كان يجلس فيها، فما كان منه إلا أن قدم قريانا لروح الشيخ عبدالله؛ تكفيرا عن ذنبه، وتقديرا وإجلالا لروح الولي¹¹. أما الذاكرة الشعبية فتزخر بالقصص التي تحدث عن قدرة أولئك الأولياء على شفاء المريض وقضاء الحاجات وفك الكربات ومنح البركة، ويتبين من خلال ذلك اعتقاد الناس في ذلك الوقت بالتأثير الروحي والمادي لأصحاب تلك الأضرحة، غير أن ثمة ملاحظة ينبغي ذكرها وهي أن عددا من الأولياء والدرائش الذي كانوا يقيمون في معان خلال فترات متقطعة من القرن العشرين؛ والذين كان الناس يتبركون بهم خلال حياتهم، لم يكن هذا الأمر ليستمر بعد موتهم، ويبدو أن الاتفاق حصل على تقديس الشيخ محمد والشيخ عبدالله والولية أم جديع، حيث تحولت قبورهم إلى مزارات وفضاءات مقدسة.

1.3 وصف ضريح الشيخ عبدالله

يقع ضريح الشيخ عبدالله إلى الجهة الشرقية من سوق معان القديم والذي يسمى سوق البدو، وهو بناء ملتصق بالسوق، وكان الزوار يقصدونه من مختلف المناطق المحيطة بالمدينة، خصوصا القرى الفلاحية، وقد يقيمون فيه وحوله أياما وليالي طلبا للنفع ودرءا للشر، والضريح عبارة عن بناء طيني مربع مسقوف بالخشب والقصب ومقنطر من الداخل بثلاث قناطر حجرية وله نوافذ صغيرة تدعى " طاقات" ويلج إليه الزائر من خلال باب رئيس، وبداخل البناء كوى مثلية كانت توقد فيها الشموع إلى جانب عتبات طينية تسمى " المصاطب" شيدت داخل البناء، وقد استخدمها الزوار كسيرير أثناء المبيت داخل الضريح، ويعد ضريح الشيخ عبدالله أنموذجا للبناء القديم في معان والذي يسمونه " بيت أبو قنطرة"، غير أن هذا الضريح يختلف بزيادة عدد القناطر فيه، وفي سقفه فتحة للتهوية تسمى " الروزنة"، والمادة الأساسية الداخلة في بناء هذا الضريح هي اللبن الطيني المجفف الذي يعتمده السكان قديما في تشييد المنازل والأرقة، أما الملاط على جدران الضريح فهو من التراب الأبيض الذي يسمونه " سمقة" والمخلوط بالتين والماء، وفي داخل الضريح توجد عدة أضرحة مشيدة بشكل مرتفع، يتوسطها ضريح كبير مغطى بالأقمشة الملونة - هو قبر الشيخ عبدالله - وإلى جانبه قبر أصغر حجما، عليه شاهد يشير إلى أن صاحب الضريح هو أحد أمراء الحج أواسط القرن التاسع عشر، و تواجدت داخل المبنى عدة أضرحة، كما تتواجد أضرحة أخرى حول الضريح، و يبين عبد الرزاق البيطار في كتابه حلية البشر أن الشيخ عبدالله المذكور" هو الشيخ عبدالستار أفندي بن الشيخ إبراهيم الأتاسي، عالم من أهل طرابلس الشام. قال الشيخ عبدالرزاق البيطار: توفي رحمه الله في معان بعد أداء الحج الشريف، ودفن هناك، وقبره على يسار الداخل إلى معان من جهة الحجاز، وقد صين قبره بأربعة جدر من اللبن، وما شاع عند أهل معان من أن صاحب هذا القبر اسمه الشيخ عبدالله؛ فهو مما جرت به العادة بين الناس غالبا من أن كل من مات غريبا في محل وكان ذا قدر ولم يعرفوه؛ فإنهم يسمونه بالشيخ عبدالله، والتحقيق أن هذا الضريح ضريح مترجم الرقوم كما هو محقق عند أهالي حمص، وكانت وفاته سنة خمس وأربعين بعد المائتين والألف رحمه الله تعالى¹².

وينقل بولس سلمان رواية أخرى عن الأهالي بأن "الشيخ عبدالله عاش في معان، واشتهر بالصلاح والتقوى، ينفر من المثالب والشوائم، وكان خطيبا ينذر القوم بالوعد والوعيد، وبنهاهم عن المنكرات والمحرمات، فلم يجد في عشيرته من يعي كلامه ويحفظه، فلما استوفى أيامه أظهر الله كراماته بشفاء كثيرين على ما زعموا، وله سطوة واسعة على الأسقام والأمراض"¹³. ويظهر

لنا أن الروايات مختلفة في إثبات شخص الشيخ عبدالله، غير أن الاتفاق على صلاح هذا الرجل وتقواه، وولايته متعارف عليه لدى متصوفة معان والأهالي، والزوار، والمؤرخين، وقد بقي الضريح قائما لغاية التسعينيات من القرن الماضي، إذ تمت إزالته تماما، باستثناء الأضرحة التي سويت بالأرض ووضع عليها بعض العلامات التي تؤشر إليها.

وتنتشر روايات أخرى تؤشر إلى أن صاحب الضريح " الشيخ عبدالله " كان يتواصل من خلال الرؤيا مع بعض الأشخاص، حيث يروي الإخباريين بأن صاحب الضريح يأتي في المنام ويعبر عن انزعاجه من دفن بعض الناس من غير الصلحاء قرب الضريح.

2. الزيارة، طقوسها ودوافعها

لقد شكلت زيارة الأضرحة في تقدير بعض الأنثروبولوجيين، متنفسا وخروجا عن العالم المادي إلى العالم الروحي، ممثلا في رمز الولي الصالح، واعتبرت محاولة للهروب من الحياة الدنيوية إلى الخيال المقدس¹⁴.

شكل ضريح الشيخ عبدالله مقصدا لسكان المدينة، والفلاحين المحيطين بناوحها وقراها، فكان ملجأ وملاذا لأصحاب الحاجات، والمكروبين، والفقراء، والمتصوفة الباحثين عن الكرامات والاستقرار الروحي، والمرضى الباحثين عن العلاج، والحجاج المنقطعين أو المتوجهين نحو الديار الحجازية الباحثين عن مأوى، والمشردين وعابري السبيل، وآخرين يطلبون التوفيق والنجاح في الحياة الزوجية وتربية الأبناء، والفلاحين الطامحين بمواسم أكثر خصبا وعطاء، وطلبا للقوة والحماية ودرء المخاطر والشور، كما شكل فضاء اقتصاديا واجتماعيا.

كان الأهالي قديما يمارسون طقوسا وأدبا معينة أثناء زيارتهم لضريح الشيخ عبدالله، ويلتزمون بتلك الطقوس والآداب، كي تحقق الزيارة أهدافها ومطلها، وقد كانت الزيارات تتم إما بشكل فردي أو بشكل جماعي، من خلال مواسم معينة احتفالية ومناسبات دينية، أو من خلال الزيارات الفردية المفتوحة وغير مرتبطة بزمان محدد. الشعائر والطقوس هي تجسيد للتعبير الرمزي عن المشاعر والاتجاهات والقيم والمعتقدات عن طريق أفعال وممارسات منظمة تعمل على تقوية المعتقد نفسه، كما تمد المشتركين فيها ببعض أساليب ووسائل الضبط حيث أنها تحدد طبيعة علاقتهم بالقوى الطبيعية وقوى ما وراء الطبيعة¹⁵.

الاحتفالات والعبادات التي تمارس في أو حول المقدس تهدف إلى الحفاظ على التوازن في النفس والجسد الانفعاليين، سواء كانت صادرة عن تجربة دينية اندفاعية غير منظمة أو تجربة

دينية مقننة، لا تخرج عن منظومة المعتقد المبني حول المقدس، وحين يصبح المعتقد مقنن غير مجد لسد تلك الحاجة الاندفاعية للتجربة الدينية الداخلية الفردية، تعود الأولوية للمعتقد الحر لسد ذلك القصور، فيظهر هذان الشكلان من الطقس أو المعتقد متعايشين في الثقافة الواحدة 16

لزيرة الضريح عناصر رئيسية بدونها لا يمكن أن تتحقق الأهداف المطلوبة، فمن عناصر الزيارة الاستئذان للدخول بقول الزائر " تستور من خاطرك يا شيخ عبدالله " ويأتي الاستئذان كمقدمة وتهينة لممارسة الطقوس والشعائر، ومن تلك العناصر: تقديم الهدية للضريح، وتكون على شكل أضحية من الغنم أو الماعز، أو إيقاد شموع أو بخور، أو تقديم حلوى، أو نقود، أو وضع القماش الملون (الأسود، الأخضر، الأبيض) وكساء الضريح به، أو تعليقه على جدران الضريح، إلى جانب تعليق قصاصات القماش الملون وربطها على جدران الضريح أو على حبال تعلق داخل المكان، أو تعليق الرايات البيضاء على جوانب الضريح، أو تلطيف جدران الضريح بالحناء، أو صناعة الطعام وإطعام الفقراء، وقد تقوم النساء بتنظيف الضريح قبل طلب الحاجة، وكانت المرأة في معان إذا حزنها أمر، أو ظلمها زوجها تقصد ضريح الشيخ عبدالله وتقوم بتنظيفه، ثم تبدي شكواها وتظلمها لصاحب الضريح وتطلب الإنصاف، أما العنصر الثالث فهو الطلب من صاحب الضريح بأن يلبى رغبات وحاجات الزائر، وهناك الطلب الاستشفائي، كأن يطلب الزائر من صاحب الضريح أن يشفيه من مرض معين سواء أكان عضوياً أو نفسياً أو فك سحر ورفع التعطيل ونحوه، ونوع آخر من الطلب وهو الطلب التيسيري بالتوفيق وحلول البركة والنجاح في الحياة العملية وتيسير الأمور في الزواج والإنجاب، وهناك طلب لدفع الشر والظلم، ويشمل التظلم والشكوى والدعاء على الظالمين وشكوى المرأة بحق زوجها وغير ذلك، وهناك الطلب المادي الاقتصادي؛ كطلب الفقير بأن يحصل على طعام أو رزق أو طلب الفلاح بموسم خصب لمزروعاته وبذاره، وقد شكل الضريح ملجأ للفقراء والمعوزين بما يوفر من طعام ومأوى، وهناك المطالب الدينية والتي كان يمارسها بعض المتصوفة بهدف التقرب إلى الله من خلال واسطة ساكن الضريح، حيث يقومون بقراءة الأوراد والأدعية والقرآن الكريم.

تتخذ الطقوس والشعائر والممارسات قرب ضريح الشيخ عبدالله أنماطاً متعددة، ورموزاً تعكس الوسائل والأساليب التي تجسد التواصل مع روح الولي الصالح، وضمن استمرارية هذا التواصل الروحي والمادي كجزء من منظومة التدين الشعبي؛ الذي يشكل روح المجتمع وسيرورته، وقد حافظ بعض قادة المتصوفة وشيوخ الكتاتيب في معان على توجيه الناس إلى إدراج زيارة الأضرحة ضمن فعاليتهم واحتفالاتهم المختلفة لضمان هذا التواصل

الموسمي وغير الموسمي. ومن أنماط تلك الطقوس؛ إقامة حفلات الختان في حرم الضريح، وزيارة العروس قبل زفافها طلبا للبركة ونجاح الحياة الزوجية وجلب ثيابها إلى الضريح بواسطة صندوق خشبي مزركش قبل العرس بيوم أو يومين لتحقيق البركة والتيسير، ويتم استقدام طلبة الكتايب بعد حفظهم للقرآن وتخريجهم من خلال احتفالية تطوف البلد وتنتهي بزيارة ضريح الشيخ عبدالله.

وتقوم النساء الزائرات بتوزيع الحلوى والنقود على الأطفال والحضور أثناء إقامة حفل الختان أو غيره، وينتشر البخور وتوقد الشموع لتكسب المكان هيبه وجلالا، ويطلقن الزغاريد فرحا بتحقيق البركة. وقد يجلب الشخص المريض مع ذويه، فيرقد قرب القبر داخل الضريح، ويدعى له بالشفاء، وعادة ما تبدأ النساء بالدخول فيرددن " تستور يا شيخ عبدالله" وهي عبارة يقصد بها التأدب وطلب الإذن بالجلوس والدعاء وطلب الحاجة، وتدخل المرأة إلى الضريح مقبلة، وتخرج وهي تمشي القهقري إجلالا لصاحب الضريح.

وبعد انتهاء طقوس الزيارة تعود الزائرة الى بيتها لتصنع طعاما مكونا من الأرز والشعرية، وتؤدمه بعصير البندورة والسمن البلدي، ليتم توزيعه على الجيران وفقراء الحي، ومن العادات القديمة التي كانت النساء يمارسها أثناء تواجدهن قرب الضريح؛ أخذ حفنة من التراب المحيط بالقبر ليفرك بواسطة السبابة على جبين الطفل طلبا للبركة، كما يغرس البعض أعوادا صغيرة من الخشب قرب الضريح كأحد طرق التواصل. ويلجأ البعض إلى طلب حلف اليمين في الخصومات والخلافات الاجتماعية إلى الشيخ عبدالله، إذ قد يطالب أحد المتخاصمين حلف اليمين عند قبر الشيخ المذكور، اعتقادا بحلول العقاب وتغليظا للأيمان، ويذكر بعض الإخباريين المتصوفة، بعض تفاصيل الزيارة؛ ويوضحون أن الزائرين للأضرحة كانوا يطلبون شفاء المريض والنصر على العدو، وتحقيق البركة وطلب الشفاعة بجاه أصحاب تلك القبور، كما أن كثيرا من طلاب الحاجات يبيتون إما داخل الضريح أو إلى جانبه، حيث أقيمت غرف طينية صغيرة قرب ضريح الشيخ عبدالله في سوق معان القديم، لاستخدامها من قبل الزوار.

والزيارات إما فردية لطلاب الحاجات والأمنيات، أو جماعية كالتي تتم قبل العرس، أو بعد الختان، واعتاد كبار المشايخ الصوفية في معان على زيارة الشيخين عبدالله ومحمد وقراءة سورة (يس) وبعض الأوراد والأدعية، فيما كانوا يطيلون الضريح قرب قبر الشيخ محمد وسط واحة معان لكونه في موقع بعيد نسبيا عن تواجد عامة الناس.

إلى جانب ما سبق؛ شكل ضريح الشيخ عبدالله فضاء اقتصاديا تجري من خلاله بعض العمليات الحرفية والتجارية، فالحجاج الآسيويون الذين تقطعت بهم السبل؛ سكنوا حول الضريح وفي داخله، وكانوا يحترفون بعض الصناعات الخفيفة التي تباع للتجار في سوق المدينة، كما جاء الضريح في قلب السوق القديم، وهو قلبه النابض والحارس له على حد عبارة بعض التجار القدامى، وتجري الطقوس المختلفة كجزء من برنامج عمل كامل لدى الفلاحين القادمين من القرى، فالفلاحون يقصدون المدينة لبيع منتجاتهم وشراء لوازمهم، وعلى هامش الزيارة يقومون بزيارة الضريح والتبرك به وطلب الحاجات، فالضريح وما يحويه من مرافق، يصبح فضاء عاما للتبادلات التجارية.

تحتل فئة النساء مساحة أكبر في نسب الزيارة والتبرك وطلب الحاجات؛ نظرا لافتقار المدينة لفضاءات دينية مخصصة للنساء في تلك الفترة، ويتحول الضريح إلى مكان للقاء والحديث والممارسة الدينية وإقامة مختلف الطقوس والفعاليات الاجتماعية، ومن هنا لا بد لنا من مناقشة مسألة حركة المرأة في الفضاء العمومي والفضاءات الدينية في تلك الفترة؛ إن حركة المرأة وانتقالها في الفضاء العمومي كانت مقيدة في المراحل القديمة؛ باستثناء حركتها وتواجدها في الفضاءات المقدسة وهي الأضرحة والمقابر، وخصوصا فئة النساء المتزوجات أو كبيرات السن، وكان لجوء المرأة إلى الضريح وطلب الاستشفاء أو الحاجات الأخرى طبيعيا، فالمرأة شكلت عنصرا هاما في حضورها لمختلف الطقوس والممارسات التي كانت تجري قرب الأضرحة، وتكاد فئة النساء من الفئات التي تشتبك بشكل فاعل ودائم مع تلك الفضاءات الدينية، لم تكن المرأة في تلك المجتمعات التقليدية الأبوية؛ سوى كائنات محرومة من أبسط حقوق العيش، وهي تحرم من التعليم والعمل والميراث، كانت تلك الفئة تعاني من ضغوطات الحياة ومن تفشي الأمية والاستغلال، ولم تجد سوى تلك الفضاءات المقدسة لتمارس فيها طقوسها وتطرح آمالها وخيبتها ومعاناتها، وتمارس عملية تفرغ المكبوتات، وتكاد غالبية الطقوس مثل الختان والزيارة وطقوس الفرح مقتصرة على المرأة، فالمرأة هي من تؤدي طقوس الختان داخل الضريح، وهي من يؤدي طقوس التبرك للعرس داخل الضريح، وهي أكثر فئة ترتاد تلك الفضاءات وتتفاعل معها دينيا. ومع التطورات اللاحقة حصلت تغيرات في واقع المرأة الاجتماعي والديني بسبب العادات والتقاليد والخطاب الديني الجديد الذي يفرض عليها لزوم بيتها، ويحرم عليها زيارة المقابر والأضرحة، وبذلك أصبحت المرأة مقيدة جدا في زياراتها للمقابر والأضرحة المقدسة، ورغم أنها التحقت بسلكي التعليم والعمل فيما بعد، إلا أنها تعرضت لتقنين شديد في مستوى الحركة والمشاركة العامة، ونخص بالذكر فيما يتعلق بالأضرحة المقدسة وزيارتها.

1.3 العوامل التي أسهمت في زوال الظاهرة

يشير عبد الجواد ياسين إلى أن التناقض بين النظام الديني والنظام الاجتماعي يبدأ بشكل تدريجي مع تزايد المسافة الزمنية الفاصلة بين اجتماعيات النشأة الأولى للنظام الديني واجتماعيات الواقع اللاحقة والمتلاحقة، لكن هذا التناقض يتحول إلى حالة إشكالية عندما تصل التطورات في النظام الاجتماعي إلى درجة التحول الجذري في الهياكل الكلية (الاقتصادية، الاجتماعية، العقلية)، كما أن التطور في تلك الهياكل يولد صداما بين نمط التدين السائد وبين حركة الاجتماع، وقد تنشأ ردات فعل دفاعية انفعالية من قبل النظام الديني لكنها مؤقتة 17. أثر انتشار حركات الإسلام السياسي بشكل كبير في إضعاف نمط التدين الشعبي والنمط الصوفي الطرقي في منطقة معان، إذ سعت حركات الإسلام السياسي إلى السيطرة على الفضاء العمومي في المدينة، كما عملت على ضرب ركائز وتجليات أنماط التدين الشعبي والصوفي، و كانت ظاهرة الأولياء من أهم تلك الركائز، لقد ترسخت حركات الإسلام السياسي في القطاع التعليمي والمؤسسة الدينية الرسمية منذ الخمسينيات، وبذلك أتيح لها نشر وتعزيز خطابها السياسي والإيديولوجي في الأوساط المختلفة، كما أتت على ما تبقى من ظاهرة تقديس الأولياء والصالحين وأضرحتهم، وكانت تلك الحركات تعتبر أن تلك الممارسات من وجهة نظرها ضربا من الشرك والخرافة.

تساق هذا الأمر مع تشكل الطبقة الوسطى في الأردن، ومع بدأ مشروع دولة القطاع العام الربعية المأخوذة من الفكرة الاشتراكية في مرحلة الستينيات، والتي استمرت لغاية التسعينيات من القرن الماضي.

لقد كان خيار التحالف السياسي بالنسبة للنظام الأردني مقديما على التحالف مع الإسلام الصوفي والشعبي، وذلك بسبب انتشار المد القومي واليساري، لذلك لم تجد الفضاءات الدينية المرتبطة بالتدين الشعبي والصوفي أي دعم من قبل السلطات، بل شجعت السلطات الحركات المناوئة لها، ودعمتها ما أثر على مختلف تلك الفضاءات وأضعف دورها الديني والاجتماعي والسياسي. لم يكن الصوفيون حينها سوى مجموعات من الحرفيين والتجار الصغار، ومع تآكل الحرفيات وصعود قطاعات اقتصادية حديثة في تلك المنطقة كقطاعي النقل والتعليم، فقد بدأت الحركة الصوفية عموما بالضعف والتآكل، وانسحب دورها الديني والثقافي والاجتماعي، وانحسر نفوذها كثيرا، وبذلك تمكنت حركات الإسلام السياسي من حيازة السلطة الدينية والسيطرة على الفضاء الديني في المدينة، وفرض خطابها الديني والسياسي.

شكل النظام التعليمي في الأردن عنصرا هاما في القضاء على الممارسات الدينية القديمة؛ وخصوصا فيما يتعلق بظاهرة الأولياء والصالحين، كما رافق ذلك التطور الثقافي

العام، حيث نشأت المؤسسات الثقافية الحديثة التي تضع الثقافة الحديثة موضع الاهتمام. وفي الجانب السياسي لم تعد الكتلة الصوفية ذات وزن اجتماعي وسياسي في ظل التطورات الحاصلة، فتم الاستغناء عنها لصالح حركات الإسلام السياسي، والفئات الوسطى التي بدأت تحل في المؤسسات المدنية والعسكرية.

نستنتج مما سبق أن التحولات التي طالت الأنماط الاقتصادية والمتمثلة بصعود الطبقة الوسطى المتعلمة، والتحولات في المجال الديني والمتمثلة بصعود حركات الإسلام السياسي، وتطور الحالة الثقافية والتعليمية والصحية؛ قادت إلى تحلل تلك الظاهرة التي كانت تؤدي وظائف صحية ونفسية واقتصادية وروحية دينية، إن تلك الوظائف القديمة كانت تلي حاجات السكان في سياق تاريخي معين، فيما استبدلت تلك المنظومة بوظائفها بمؤسسات حديثة تؤدي وظائف جديدة، وتلي حاجات السكان.

خاتمة:

شكلت أضرحة الأولياء في مدينة معان ظاهرة دينية ثقافية في المجتمعات المحلية لغاية أواخر القرن العشرين، وكانت تلك الأضرحة تؤدي وظائف عدة رعائية صحية دينية اقتصادية نفسية اجتماعية، وقد تحللت تلك الظاهرة في سياق التحديث الذي طال الدولة الأردنية، كما أسهمت حركات الإسلام السياسي في محاربة تلك الظاهرة واستبدلت عوضاً عنها خطابها الديني والإيديولوجي والسياسي ما أسهم في زوال تلك الظاهرة بشكل كلي.

الهوامش:

- 1- عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000، الطبعة الأولى، ص 174
- 2- المرجع السابق، ص 175
- 3- أوسرار مصطفى، الأضرحة ومزارات الأولياء بالمغرب، مجلة الثقافة الشعبية، مملكة البحرين، العدد 33، 2016.
- 4- دحماني لحسن، البركة والتبرك والزواوية، مقارنة سوسبولوجية لواقع التدين بالمغرب، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المغرب، 16 إبريل 2019، ص 11
- 5- عبدالله باباحد، تمثل الأولياء الصالحين لدى مريدي الزوايا، دراسة ميدانية لمريدي الزواوية القادرية بورقلة، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 2014، استرجعت بتاريخ 15 أيار 2019 من الرابط: <https://bu.univ-ouargla.dz/master/pdf/babahad.pdf?idmemoire=3173>
- 6- سعاد عثمان، المعتقد الشعبي بين الثبات والتغير، دراسة ميدانية استطلاعية لتكريم الأولياء في مدينة المنيا، متضمنة في كتاب مقدمة في دراسة التراث الشعبي المصري، الطبعة الأولى، 2006، ص 176
- 7- دحماني لحسن، مرجع سابق، ص 14

- 8- الفرفار العياشي، المخابن الأنثروبولوجية : التصوف وتقديس الأضرحة أنموذجا، مقالة منشورة على موقع بوابة علم الاجتماع، 2019، استرجعت بتاريخ 10 حزيران 2019 من الرابط: https://www.b-sociology.com/2019/06/blog-post_78.html
- 9- عبد الغني منديب، الدين والمجتمع، دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب، إفريقيا الشرق للنشر، 2006، ص 45-46
- 10- هبة بريس، ظاهرة تقديس الأولياء أو التدين الشعبي، سيدي وساي نموذجا، موقع مغرس الالكتروني، مقالة نشرت بتاريخ 26 نيسان 2012، استرجعت بتاريخ 3 حزيران 2019 من الرابط: <https://www.maghress.com/hibapress/83144>
- 11- أجرى الباحث عددا من المقابلات المعمقة مع عدد من الإخباريين والمتصوفة في معان والذين كانوا يلازمون تلك الأضرحة في فترة الستينيات ولغاية الثمانينيات.
- 12- عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، الجزء الثاني، بدون تاريخ، ص 847
- 13- بولس سلمان، خمسة أعوام في شرقي الأردن، مطبعة السفير، عمان، الأردن، 2011، ص 172
- 14- نفيسة وديدة، المعتقدات والطقوس الخاصة بالأضرحة في الجزائر خلال الفترة العثمانية، مجلة إنسانيات، العدد 68، 2015، ص 16
- 15- عبد الرزاق صالح محمود، زيارة الأضرحة والمرقد، ضريح عمر مندان نموذجا، دراسة طبية اجتماعية، دراسات موصلية، مركز دراسات الموصل، الموصل، العراق، العدد 19، 2008، ص 119
- 16- فراح زينب، الزيارة السنوية للأضرحة، رسالة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر، ص 18، استرجعت بتاريخ 2 حزيران 2019 من الرابط: <https://theses.univ-oran1.dz/document/THA2762.pdf>
- 17- عبد الجواد ياسين، التدين والعنف الديني، حلقة تلفزيونية على قناة سكاي نيوز عربية على موقع اليوتيوب، نشرت بتاريخ 2 كانون الثاني 2016، استرجعت بتاريخ 5 حزيران 2019 من الرابط: <https://www.youtube.com/watch?v=dJxtfA674Cw&t=2s>

ملحق: مجموعة صور لضريح الشيخ عبدالله في معان، من تصوير المعماري عمار خماش 1984

